

مقدمة

اختلف المؤرخون في تقدير أعمال محمد على الكبير بين مادح وقادح .
فأشار المادحون — شأنهم في ذلك شأن كل المادحين للحكام على مر
العصور — بما تم على يديه من اصلاحات ، وازدهاره بمظهر البطل المغوار ،
والعبقري الفذ ، والمصلح المستنير الذى تحمل أعباء الحكم في مصر ،
واعاد اليها حياتها وذاتيتها ، وحاول القادحون الخط من شأنه وشأن
اصلاحاته والنظر اليها من خلال منظار أسود .

وحين تختلف الآراء حول ظاهرة تاريخية أو حدث معين فإن
الوثائق خير لغة للحديث ، وأفضل ما يرجح رأيا على آخر ، فكتابة
التاريخ من واقع مصادره الأصلية كما هو معلوم تتيح للمؤرخ الالام
الدقيق بحقائق العصر الذى يدرسه ، وتجعل أمامه صورة الاحداث واضحة ،
وتضيف دلالات جديدة وموضوعية لبحثه ، وتجعله ينهج نهج الأسلوب
العلمى الذى يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير ، وإنما يستقى
النتائج من أوثق المصادر والأصول التى تجعله يقف على حقائق الامور
بلا أدنى شك أو مواربة .

فالوثائق هى المادة الخام التى تحمل روح العصر الذى كتبت فيه
والتي تعطى الفهم الصحيح له ، وتفسر احداثه وربما كان لظهور وثيقة
تاريخية جديدة أكبر الأثر في تغيير مفاهيم خاطئة قد توارثها الآباء عن الاجداد
والابناء عن الآباء فأخذت صورة الحقيقة على غير استحقاق أو تكون فيصلا
في الحكم على بعض الاحداث والظواهر .

ومن حسن حظ مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع عشر أن
طريقة محمد على في الحكم والادارة استلزمت قدرا كبيرا من المضابط
والمحاضر والخلاصات واليوميات والتقارير التى تمكنهم من تتبع المسألة

الواحدة من العامل الصغير الى المجلس الكبير الى مقر السلطان ، ومن القرية النائية الى عاصمة الحكم ^(١) .

وموضوع الدراسة التى نقدمها عن وثائق « ديوان التجارة والمبيعات » فى عصر محمد على تعتبر ضرورية وهامة لدراسة تاريخ مصر الاقتصادى خلال هذه الفترة خصوصا وانها تشمل وثائق يمكن اعتبارها من أبرز الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الاقتصادى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والذى شهدت مصر خلاله تطورا اقتصاديا واضحا بفضل جهود محمد على الدائبة فى الارتقاء بالنواحى التجارية والصناعية والزراعية فى مصر ، ونجاحه فى تذليل معظم الصعوبات التى واجهته حتى أصبحت له السيطرة الكاملة على جميع وسائل الانتاج والتوزيع فكان الزراع والصانع الوحيد بلا منازع ^(٢) ، كما انه كان اكبر تاجر فى مصر .

وتتمثل أهمية وثائق هذا الديوان فى أنه يقدم لنا صورة حية بالاسانيد والأرقام الرسمية عن طبيعة الحياة التجارية فى مصر فى عصر محمد على هذا بالإضافة الى أنه يرسم لنا صورة العلاقات بين كافة الادارات والدواوين المعنية بتنظيم حركة الحياة الاقتصادية فى تلك الفترة .

وثائق الديوان موضوع البحث توجد فى دار الوثائق القومية بقلعة صلاح الدين بالقاهرة ضمن مجموعة أخرى من الوثائق تحت عنوان « وثائق الانتاج » وتشمل أحد عشر ديوانا ^(٣) يرمز لها بالحرف (ج) .

(١) من مقدمة محمد شفيق غربال لكتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ١٨٤٨ — ١٩٤٨ ، القاهرة — الجمعية الملكية للدراسات التاريخية (٢) للتفاصيل أنظر :

Crouchley : Economic Development of Modern Egypt.

(٣) هذه الدواوين هى :

- ١ — ديوان المالية .
- ٢ — ديوان الإيرادات .
- ٣ — ديوان الأخشاب .
- ٤ — ديوان تجارة ولى النعم .
- ٥ — ديوان دائرة محمد سعيد .

والديوان موضوع بحثنا ينقسم بدوره الى ثلاثة عشر قسما (٤) كل قسم منها يتكون من عدد من السجلات وصل مجموعها الى خمسة وخمسين سجلا ، يضاف الى ذلك انه توجد مجموعة من المحافظ بدار الوثائق بالقاهرة

-
- = ٦ — ديوان مجلس تجار مصر .
٧ — ديوان تجارة مصر .
٨ — ديوان الجفالك .
٩ — ديوان الدائرة السنوية .
١٠ — ديوان دائرة الهامى باشا .
١١ — ديوان التجارة والزراعة والمبيعات .

- (٤) القسم الأول « مايسترو ديوان المبيعات » ويتكون من ثلاثة سجلات .
— القسم الثانى « صادر مجلس الزراعة » ويتكون من أربعة سجلات .
— القسم الثالث « صادر ووارد » ويتكون من ثلاثة سجلات .
— القسم الرابع « قيد التحريرات الصادرة من ديوان التجارة » ويشمل ثلاثة سجلات .
— القسم الخامس « صادر نظارة التجارة والزراعة » ويتكون من ثلاثة سجلات .
— القسم السادس « وارد ديوان التجارة والزراعة » ويشمل ثلاثة سجلات .
— القسم السابع « شطب التحريرات الواردة » ويقع فى سبعة سجلات .
— القسم الثامن : ويشمل ثلاثة سجلات .
— القسم التاسع « دفتر مصروفات الابعدية » ويشمل سجلا واحدا .
— القسم العاشر « صادر ووارد التجارة والمبيعات » ويشمل ثمانية سجلات .
— القسم الحادى عشر « جرنال ديوان الخديو تركى » ويشمل ثمانية سجلات .
— القسم الثانى عشر « قيد التحريرات تركى » ويشمل ستة سجلات .
— القسم الثالث عشر « قيد الأوامر العلية والافادات تركى » ويشمل ثلاثة سجلات .

أيضا تحت عنوان محافظ « ديوان التجارة والمبيعات » عددها ثلاثة وثلاثون محفظة تشمل في معظمها عصر محمد علي ^(٥) .

ولما كانت هذه المراسلات تضاف ابعادا واقعية وجديدة على حقيقة الأمور الاقتصادية في مصر في تلك الفترة وتكمل ما هو موجود في سجلات الديوان فقد اشتملت هذه الدراسة على الوثائق الموجودة بسجلات الديوان ومحافظة معا .

وقبل أن ندخل في تفاصيل محتويات وثائق هذا الديوان بقى أن نذكر شيئا عن ماهية هذه الوثائق ولغة كتابتها . الواقع أن هذه الوثائق عبارة عن الأوامر والتعليمات الصادرة من محمد علي إلى بوغوص يوسف بك ناظر تجارته ^(٦) وإلى كبار موظفيه ، ورؤساء دواوينه ومعاونيه المكلفين بتنفيذ سياسة الحكومة الاقتصادية ، وردود هؤلاء على محمد علي ، وأن هذه الوثائق كتبت في معظمها بالتركية والقليل منها كتب بلغة عربية بسيطة اقرب إلى العامية منها إلى الفصحى ، كما أن بها مصطلحات وكلمات ليست من العربية في شيء ، بل هي اقرب إلى التركية واليونانية منها إلى العربية مما يحمل الباحث أعباء شاقة في فك رموز الكثير منها خصوصا وأن بعض هذه الوثائق كتبت بخط رديء .

أما عن الوثائق المكتوبة بالتركية فقد ترجمت إلى العربية في عصر الملك فؤاد الذي شجع المؤرخين ، وخصوصا الأجانب منهم على التأريخ لاسرته ، وتسيلا لذلك فقد عني بترجمة الوثائق التركية الخاصة بتاريخ هذه الأسرة خصوصا وثائق عصرى محمد علي والخديو اسماعيل وعن تناولنا لوثائق هذا الديوان التي تسجل حركة التطورات الاقتصادية

(٥) يوجد ضمن وثائق هذه المحافظ والسجلات مكاتبات خاصة بعصر كل من عباس الأول وسعيد واسماعيل ، ولكنها قليلة ولا تشكل مادة متكاملة .

(٦) ولد في أزمير عام ١٧٦٨ ، وبرع في عدة لغات نطقا وكتابة منها الارمنية والتركية واليونانية والفرنسالية ، وعمل في شبابه بالتجارة ، ثم هاجر إلى مصر وأقام بها ، وكان موضع ثقة محمد علي ، ومرجع مشورته ، وقد ظل في خدمة الحكومة المصرية حوالي ٤١ سنة .

والاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ينبغى لنا أن نذكر أننا لم نهدف عن طريقها الى دراسة تاريخ مصر الاقتصادى في عصر محمد على تفصيلا بل كان جل الاهتمام بابرار أهم ما تعرضت له هذه الوثائق من معلومات يمكن عن طريقها سد ما تركته المؤلفات التى تعرضت لهذا الموضوع من ثغرات .

وطبقا لذلك امكنا تقسيم موضوع هذه الدراسة الى العناصر الآتية :

أولا : أثر اهتمام محمد على بمحصولى القطن والأفيون على تطوير حركة مصر التجارية بينه وبين التجار الأجانب ، ونظام المكاييل والموازين والجمارك ، وتداول العملات الأجنبية داخل مصر والتلاعب فى أسعارها وتزييفها ، وأسباب انشاء مصرف بالاسكندرية لتقدير اثمان المسكوكات المتبادلة وتحديد أسعارها هذا بالإضافة الى ما أشارت اليه وثائق الديوان عن الصناعة وأسباب اهتمام محمد على بها .

ثانيا : كيف كانت علاقات محمد على التجارية مع كل من السلطان العثمانى والأوربيين ، وما هو اثر هذه العلاقات على النواحي السياسية والطريقة التى اتبعها محمد على لتفضيل مصالحه ومصالح ولايته قبل أى شئ آخر ، والخلافات التى حدثت بين الأجانب فيما بينهم من ناحية وتلك التى حدثت بينهم وبين المصريين من ناحية أخرى ، وموافقة محمد على على تشكيل محكمة التجارة الأوروبية للفصل فى هذه الخلافات .

ثالثا : كيف كان محمد على يدير علاقاته مع موظفيه ، وهل نجحت طريقة استعماله للشدّة مع المخطئ ، وتشجيعه لأصحاب الهمم ، وهل كان يصدر قراراته وأوامره بمفرده أو يأخذ آراء ذوى الخبرة من موظفيه فيها قبيل إصدارها .

رابعا : ما هى آثار حروب محمد على على الاقتصاد المصرى ، وماذا عن تدهور أمور مصر الاقتصادية نتيجة لذلك لدرجة أن كانت تخضم مصاريف شراء الأسلحة من اثمان بعض المحاصيل ، وما هى المتاعب التى واجهها محمد على من قراصنة البحر الذين كانوا يترصدون لسفنه التجارية،

وما هى المحاولات التى بذلها من أجل تأمين سفنه ، ولماذا قام بتأجير بعض السفن الاجنبية للمساعدة فى نقل الامدادات لقواته الموجودة خارج مصر ، وما أسباب اهتزاز خزانة البلاد خصوصا فى اوقات الحروب التى خاضتها مصر فى بلاد الحجاز والمورة .

خامسا : ماذا عن تعرض وثائق الديوان لبعض مظاهر التعسادات والنواحي الاجتماعية والثقافية فى مصر فى عصر محمد على والتى من أبرزها دور الحلاقين والدايات فى عمليات الختان والتوليد ، ومهنة السمسة ، وحالات السجون ومعاملة السجناء ، والفرار من الجندية ، وتعداد النفوس والاهتمام بالتعليم .

وننما يلى نعرض لاهم هذه الموضوعات ، ولنبدا بأولها :